

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة السادسة - العدد الرابع والعشرون - شتاء ١٣٩٥ش / كانون الأول ٢٠١٦م

صص ١٢٤ - ١٠١

قراءة سوسولوجية في تجديد أبي نواس الشعري

آزاده منتظري (الكاتبة المسؤولة)*

الملخص

أبونواس حسن بن هانئ، الشاعر الإيراني (١٩٦ق) يعدّ من كبار شعراء العرب وعباقرته على الإطلاق، ومحاولاته التجديدية في الشعر من القضايا الأدبية الكبرى التي أثارَت دراسات أدبية ونقدية على مرّ العصور. قد ذكرت أسباب شتّى لهذه الظاهرة الأدبية الهامة في مختلف المصادر والمراجع، ولكن هذا البحث قام باستقصاء دعوة أبي نواس التجديدية من منظور سوسولوجيا الأدب، واستهدف دراسة أحكام هذه المنهجية الحديثة من خلال المقدمات الطللية في بعض المدائح النواسية وقياسها بالعناصر المستحدثة في فواتح بعض قصائده الأخرى، مضافاً إلى معالجة أسباب ظهور هذه النزعة الأدبية في تلك الفترة التي عاش فيها أبونواس. لقد تناولت هذه المقالة أشعار أبي نواس على المنهج الوصفي التحليلي، وقد وجدت أنّ تجديد أبي نواس الشعري جاء إثر نزعته الشيعية المبنية على مواقف الرفض والثورة، والتناقضات الموجودة في العصر العباسي الأول التي سادت من خلال نشوء الطبقات الاجتماعية الجديدة، والتغيرات السريعة التي حدثت جرّاء امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأخرى كما ليس ينبغي أن يُهمل دور تضاد القيم والمعايير الاجتماعية القديمة والحديثة، وعدم تطابق الإيديولوجية القديمة والظروف الراهنة، وعدم توافقهما عند المثقفين في المجتمع العباسي آنذاك.

الكلمات الدلّيلية: أبونواس، العصر العباسي الأول، النزعة التجديدية الشعرية، سوسولوجيا الأدب، النقد الاجتماعي.

*. أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة قم، قم، إيران

azade.montazeri@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٣٩٥/١١/٥ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٥/٢ش

المقدمة

إنّ الأدباء والفنّانين هم أبناء بيئتهم؛ منها ينهلون ويتناولون ويغرفون وفيها تشع إنتاجاتهم وتتدفق إبداعاتهم، والعلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة حيث يسمّى الأدبُ مرآة المجتمع، فلا ينتج أدب إلا في الجماعة ومتأثراً بها، إذ إنّ الأديب لا يكتب نصّاً ليتمتع به وحده دون الآخرين، ولا يقول شعراً ليسمعه وحده، ولا يقتبس صورته وقيمه إلا من الثقافة التي تلقّاها منذ الصغر واكتسبه من تجاربه في بيئته، ومن المستحيل أن يشعر بالرضى والراحة إلا عندما يجد من يقرأ نصه أو يستمع إليه أو يواجهه من يتمتع بالفن فيشاركه في أحاسيسه المبدّعة.

ضرورة البحث وأهدافه

لا يخفى على أى باحث في الأدب العربي أن أهمية الشعر عند العرب بالقياس إلى الفنون الأدبية كبيرة لا يمكن مقارنتها بأى فنّ أدبيّ آخر، فقد كان من أهميته أنهم اعتبروا الشعر ديوانهم الذي سجّلوا فيه مآثرهم ومفاخرهم وأخبارهم وأيامهم. ولاسيما إذا كان «الشعر في العصر العباسي الذي يعدّ أطول العصور الأدبية زمناً وأكثرها تقدماً وتفناً وحضارةً ولأنّه العصر الذي نبغ فيه من الشعراء الكبار الذين لا يطاؤهم شاعرٌ في عصر آخر». (السامري، ١٤٢٦ق: ٤) منهم أبونواس (١٩٦ق) الذي عُرف في "طبقات الشعراء" بأنّه كان «عالماً فقيهاً، عارفاً بالاحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، وقد تادّب بالبصرة، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين». (ابن المعتز، ١٩٧٨م: ٢٠١) مضافاً إلى ذلك كلّ أن الباحثين قد اعتبروا أبانواس زعيم الثورة التجديدية رغم اختلافهم في تحديد أبعاد هذه الثورة، وسعتها ومدى تأثيرها في فن الشعر العربي بصورة عامة.

وثمة قراءات عديدة تكمن في كل نص أدبي مصوغ في برهة من العصور التاريخية، والشعر القديم لا يعنى بالياً ولا متخلفاً بل هو «الشاهد الحاضر والحى على الدوام لتقديم ما تحتزنه صورته الفنية من معلومات ومعطيات، وظواهر نفسية واجتماعية

وفكرية وطبيعية واقتصادية ودينية؛ وبمعنى آخر هو وثيقة ذاتية وموضوعية لصاحبه وبيئته وعصره.» (جمعة، ١٩٩٨م: ٢٥)، وليس من الصواب اعتبار أن المناهج والآليات الحديثة تتطلب الإنتاجات الأدبية الحديثة مجتاً، بل توجد في الأعمال القديمة طاقات كثيرة لمثل الدراسات التي تُلبس على قامتها الجدّة والطراوة. ومن هذا المنطلق تستهدف هذه المقالة إلى استقصاء تجديد أبي نواس الشعرية من منظور سوسولوجيا الأدب ويعالج هذه النزعة الشعرية وجوانبها، وقد يكشف عمّا تبدو في الوهلة الأولى من البديهيّات، لكنّها تضمّر في خفاياها حقائق كثيرة.

خلفية البحث

أجرى عن خروج أبي نواس على مبادئ الشعر الجاهلي، كثيرٌ من الدراسات والبحوث منذ القديم إلى زماننا الراهن، من أحدثها: مقالة "أبونواس بين مطرقة الحكام وسندان التاريخ" لـ "هادي پور نهزمي" (١٣٩٠ش)، المطبوعة في مجلة "أدب عربي" المحكمة؛ مقالة "أبونواس بين نقادة القدامى والمعاصرين" لعبد الغفور (١٩٨٠م) المطبوعة في كلية الآداب بجامعة بغداد؛ كتاب "أبونواس بين العبث والاعتراب والتمرد" لـ "الزعيم" (١٩٨١م)، وكتاب "حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه" لـ "خريس" (١٩٩٤م). ولا يوجد في هذا المجال كتاب أو مقالة مستقلة قد قامت بدراسة القضايا الاجتماعية المرتبطة بالنزعة التجديدية النواسية رغم أننا قد نواجه اشارات عابرة مبعثرة فيما يخصّ بأبي نواس وثورته الشعرية.

منهج البحث

هذا البحث يسلّط الضوء على الجوانب الاجتماعية لنزعة أبي نواس التجديدية في الشعر معتمداً على منهج سوسولوجيا الأدب، فيقوم بتحليل ظاهرة التجديد في الشعر العباسي نشأتها وتطوّرها ويستقصي أهم مؤثراتها السوسولوجية وما يتعلّق بها.

نبذة عن سوسولوجيا الأدب

ظهر أول الدراسات في سوسولوجيا الأدب، في القرن التاسع عشر في كتابات "مدام

دى ستيل" لدى دراستها الأدب من حيث علاقته بالمؤسسات الاجتماعية ثم جاء "كارل ماركس"، وهو أول من أعطى تفسيراً موضوعياً للعلاقة بين الأدب والمجتمع، وعين لها موضوعاً داخل مجموعة العلوم الاجتماعية، واعتبر أن الأدب واقعة اجتماعية تاريخية نسبية، وإن الكاتب يعبر في أعماله عن وجهة نظر الطبقة التي ينتمى إليها بوعى أو بغير وعى، ووافقه لوكاتش على مقدماته، ثم جاء "غولدمن"، وهما متفقان على توجيه الرواية نحو الدراسة السوسولوجية. (حجازي، ٢٠٠٧ م: ١٤٠) والذين جاؤوا بعد هؤلاء قد جعلوا سائر الأنواع الأدبية مثل الشعر مجالاً مناسباً لهذه الدراسة، مع هذا لا تزال تخصص الرواية سهماً أوفر من هذه الدراسة لنفسها بالنسبة إلى الشعر.

وقد نجد في فكر ابن خلدون جذوراً للنظرية الاجتماعية في الظاهرة الأدبية وقد تمثلت هذه الجذور عنده في أمرين: «الأول: هو نظرة ابن خلدون للشعر بوصفه نشاطاً إنسانياً يوجد في كل لغة، وله أسباب تخصه وشروط لأحكام صياغته؛ والثاني: هو ربط ابن خلدون بين أحوال الأدب والأدباء وبين أطوار الدولة، نشأتها وازدهارها ثم اضمحلالها.» (ابوشقراء، ٢٠٠٥ م: ٢٤ نقلاً عن ابن خلدون، المقدمة: ٤٧٢)، فلا ريب أن للنوعية المجتمع والسلطة دور هام في تحديد القضايا الأدبية وما تستوعبه.

النزعة التجديدية نشأة وتطوراً

قد عُرف العصر العباسي الأول بالثورة التجديدية في الشعر، وأسبابها ما اقتضت على أسباب أدبية مجتة، كما لا تختص مؤثراتها ونتائجها بمقل الأدب فحسب بل تتعداه إلى المجتمع ومجالاته العديدة؛ فإن الأدب ليس بمعزل عن الحياة الاجتماعية وما تقتضيه حياة كائن اجتماعي، وهو إنسان.

و إذ إن لا تحدث أي ظاهرة دفعةً واحدة بل تتدخل في حدوثها وتطورها أسباب وعوامل شتى منذ سنين عديدة، فليس من الصواب أن تُدرس النزعة التجديدية الشعرية في العصر العباسي الأول بمعزل عن تطورها وبواعثها في العصور السابقة. وقد وصف بروكلمان تطوّر الحركة التجديدية، قرب نهاية الدولة الأموية، أي في الأوائل القرن الثاني للهجرة قائلاً: «كانت قالب القصيد - كما هو معروف في الشعر الجاهلي - قد صار

طرازاً قديماً بالياً في أواخر عهد الدولة الأموية، فلم يقو على مسيرة العصر لقد كانت مواده ومعانيه المتوارثة المحدودة في نطاق ضيق، مرتبطة بحياة البادية، فلم تعد تتفق مع الروابط والصلات الجديدة التي تختلف عن علاقات البادية اختلافاً كلياً، والتي قامت بين السكان المختلطين من العرب والعجم في المدائن الكبيرة التي غدت مراكز الحياة العقلية، وهكذا انحَلَّ عمود الشعر، فما كان من فقرات القصيد القديم صالحاً للحياة بعد تناوله كبار الشعراء في هذا العصر، فصاغوا منه أنواعاً مستقلة من الشعر كالحمريات والغزل والطرديات وغير ذلك.» (بروكلمن، ١٩٦١م: ٩/٢)

والمقدمات الطللية صارت صفحة من حياة الناس في العصر الجاهلي، فالشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية، والصورة الصادقة لعادات العرب وتقاليدهم ومثلهم بغض النظر عن القيم الفنية والصور الجميلة الرائعة والمعاني الدقيقة، وإن الأطلال وصاحبة الأطلال ورحلتها في أعماق الصحراء وغيرها من الخصال الإنسانية كالجود والكرم والحبِّ والوفاء - التي هي من مقتضيات حياة العرب القبلية والمنتقلة بين مختلف الأودية والصحارى للتغلب على الفناء ومواجهة قسوة الحياة - فهي صارت بمثابة القيم والمعايير الاجتماعية - الأدبية للحياة الجاهلية والشعر القديم.

وهذه الفكرة تنطبق رأى "مدام دوستال" من أوائل رواد علم اجتماع الأدب إذ تقول «إنَّ الأدب يتغير بتغير المجتمعات، ويتبدَّل بتبدُّلها، ويتطوَّر حسب تطور الأوضاع الاجتماعية، ومن هنا رأَت أنه أصبح من الضروري بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ظهور أدب جديد يعبر عن مجتمع ما بعد الثورة، ويختلف كثيراً عن أدب ما قبل الثورة، وصار لزاماً على النقد أن يحوِّل سؤاله من "كيف يكتب الأدباء؟" إلى "عن ماذا يكتبون؟".» (بركات، ٢٠٠٤م: ٤٩)

فإن كل مجتمع يتميز أدبه عن مجتمع آخر إذ إنَّ الثقافات والتقاليد والأعراف تتعدَّد وتتكرَّر بعدد المجتمعات، والتغيرات التي تطرأ على حياة الناس في العصور المختلفة يترك تأثيرها في الحياة الأدبية لهؤلاء الناس أيضاً، وبما أن الأدب يقتضى التكيف مع روح العصر ومسايرتها للحياة الاجتماعية فليس له إلا أن يتغير بتغير المجتمع أو العصر، إذن الحياة الجاهلية تتطلَّب أدباً لا يلاءم الأدب الأموي أو العباسي والحياة

الحضرية تتطلب أدباً لا يلاءم الأدب الجاهلي، فذلك شأن أدب كل مجتمع، ولا يقتصر على المجتمع العربي.

ولم يكن أبونواس أول من دعا إلى التجديد، فقبل إن الكميت بن زيد الأسدي، صاحب الهاشميات وشاعر الشيعة في العصر الأموي، هو أول من رفع صوته لترك الوقوف على الديار العاقية بدافع ديني، وهو حبه لأهل البيت (عليهم السلام) حيث يقول في مطلع قصيدته:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

(هدارة، ١٩٦٣م: ١٤٤)

ونجد أيضاً قرب نهاية الدولة الأموية، في بداية القرن الثاني حركة تجديدية، من أبرز شعرائها مطيع بن أبياس وحماد عجرد من شعراء الكوفة، ولا ننكر تأثير الوليد بن يزيد في تشجيع هذه الحركة واستمرارها وقوتها وإن تأثر بهما في شعره التجديدي. (المصدر نفسه، ١٩٦٣م: ١٤٥-١٤٨)

فأخذت حركة التجديد تتسرى في مطلع القرن الثاني، ويثور على عمود الشعر القديم ومنهجه وقوالبه، ومما أعان هذه الحركة بجانب الأسباب التي ذكرناها من قبل، هو ظهور طبقة جديدة في المجتمع من ناحية جنسها وثقافتها إذ كانت مزاجاً بين العرب وبين الأجناس الأخرى التي دخلوا تحت راية الإسلام في بداية القرن الثاني.

وهذه الطبقة الجديدة المولدة - التي يمكننا أن ندرجها في ضمن الطبقة المتقفة للمجتمع العباسي - كانت لها خصائص نفسية وطرائق تفكير تختلف بالعادة عن العرب الخالص الذين كانوا يحملون لواء الشعر دون منازع حتى حدود نهاية القرن الأول، أما في البداية القرن الثاني فقد ظهر هؤلاء الشعراء المولدون الذين كانوا يجيدون العربية في معظم الأحيان بجانب لغاتهم الأخرى، فكانت ثقافة اللغتين تمتزج في نفوسهم امتزاجاً قوياً، فتولدت عن هذا الامتزاج روح جديدة لا تنظر إلى التراث الشعري القديم نظرة التقديس والتعظيم كما كان العرب الأصيل ينظر إليه، ولم تعد تلك القوالب الجاهلية القديمة تثير عواطفهم أو تربطهم بإحساس أو عاطفة ما، فاندمت الرابطة العاطفية بين هؤلاء الشعراء الجدد وبين معالم الحياة العربية الجاهلية بما فيها من الأطلال والخيام وما

إلى ذلك، فلم توافق رؤيتهم وما كان سائداً في مجال الأدب، فأدّى ذلك إلى الجدلية بين القيم والمعايير التي كانت سائدة في المجتمع العباسي وما قائماً في مجال الشعر والأدب. وهذه الواقعية الاجتماعية - الأدبية تتفق ما قاله "هيپوليت تين" في ثلاثيته المشهورة التي استند بها في نظريته الاجتماعية؛ إنَّ البيئة أو الوسط، الجنس أو العرق، اللحظة التاريخية أو العصر هي عناصر لا يمكن فهم العمل الأدبي وتفسيره ونقده دونها، لأن العمل الأدبي ليس مجرد نوع من عبث الخيال الفردي، بل إنّه يعكس بعض الحقائق والانفعالات المحددة والقابلة للتمحيص (عزيز الماضى، ١٩٨٦م: ٨١) ومع أنّه لا تقبل نظريته بأسرها لكنّها تدلّ على أن المؤلدين قد تأثروا في اتخاذ موقفهم التجديدي في الأدب بالبيئة والعصر وكذا الجنس باعتبارهم أجناس غير العرب الذين يعيشون في البيئة العربية تحت لواء الحكم العباسي.

فغداً ظهور هؤلاء الشعراء قوة دافعة شديدة للحركة التجديدية في الشعر في أواخر العصر الأموي، وتواصلت بقوة أكثر في العصر العباسي الأول لشدة الدوافع والمؤثرات الاجتماعية في هذه الفترة من نفوذ البرامكة الفرس في نظام الحكم العباسي وتصرفهم في الشؤون المالية والاقتصادية للحكومة وما إلى ذلك. فلان تغير الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية في العصر العباسي الأول دفع كثيراً من الشعراء إلى التمرد والإحساس بالاغتراب إزاء بروز العناصر الجاهلية في الشعر العباسي، فقد برزت هذه الظواهر بروزاً جلياً في أشعارهم. (الشتيوي، ٢٠٠٤م: ٨٥) والحق أنّ حركة التجديد ظهرت بواورها القوية الأولى في شعر بشار بن برد حيث كاد يجمع النقاد على أن بشار زعيم المؤلدين ورأس المحدثين وكبيرهم رغم اعترافهم بتقدم أبي نواس وتفوقه على معاصريه (الزبيدي، ١٩٦٦م: ٤٥) بيد أن أبانواس باعتباره واحداً من المؤلدين يعبرٌ تعبيراً صادقاً عن ذلك الشعور الذي كان يخالجه هو وأمثاله من المؤلدين حيث يقول:

مألى بدارٍ حَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلُ	وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلُّ
وَلَا رُسُومٌ وَلَا أَبْكَى لِمَنْزِلَةٍ	لِلْأَهْلِ عَنْهَا وَلِلْجِيرَانِ مُنْتَقَلُ
وَلَا قَطَعْتُ عَلَيَّ حَرْفٍ مُذَكَّرَةٍ	فِي مَرَفَقِيهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا قَتْلُ

بِيَدَاءِ مُقْفَرَةٍ يَوْمًا فَأَنْعَتَهَا
وَلَا شَتَوْتُ بِهَا عَامًا أَدْرَكَنِي
وَلَا شَدَّدْتُ بِهَا مِنْ خَيْمَةِ طُنْبًا
مَا بَيْنَ رَيْعٍ وَلَا رَسْمٍ وَلَا طَلَلٍ
لَا الْحَزْنَ مَنِّي بِرَأْيِ الْعَيْنِ أَعْرِفُهُ
لَا أَنْعْتُ الرُّوضِ إِلَّا مَا رَأَيْتُ بِهِ
وَلَا سَرِي بِي فَأَحْكِيكِ بِهَا جَمَلٌ
فِيهَا الْمَصِيفُ فَلِي عَنْ ذَاكَ مُرْتَحِلٌ
جَارِي بِهَا الضَّبُّ وَالْحِرْبَاءُ وَالْوَزَلُ
أَقْوَى وَيَبْنِي فِي حُكْمِ الْهَوِيِّ عَمَلٌ
وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ
قَصْرًا مَنِيفًا عَلَيْهِ النَّخْلُ مُشْتَمِلٌ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٢٦٠/٣)

فقد دعا أبونواس بقوة إلى التجديد في عمود الشعر، وجهر بهذه الدعوة، إذ هو وجد إنَّ استدعاء العناصر الجاهلية في أدب مجتمعه الحضري ينافي ما ظهر في المجتمع من ضروب الطرب وألوان الحضارة، فهو نقد معظم عناصر البداوة الشعرية التي لا تعكس في الأدب واقع الحياة التي يعيشونها ويحيونها، ولا تُبدى ما حدثت في هذه الحياة من التغيرات المبدئية في مستوى معاش الناس وثقافتهم وحضارتهم وما يكون فيها، بل هي غير واقعية ملتصقة إلى ماضيها.

الف- عناصر الحياة الجاهلية في الشعر النواصي

أدركنا مما سبق أن ظاهرة المقدمة الطللية قد نشأت مرتبطة بالبيئة ونوع الحياة والحضارة فيها، وإن هي لم تتخذ شكلاً واحداً بل تعددت أشكالها وتوعدت صورها، فالشعراء العباسيون أخذوا يغيرون في شكل المقدمة الطللية، بل لقد استحدثوا أنواعاً من فواتح المقدمات استمدوها من بيئتهم المتحضرة وحياتهم المترفة، فحذفوا كثيراً من عناصرها البدوية المتصلة بالبيئة الصحراوية.

ولكن هذا الكلام لا ينطبق على جميع الشعراء في العصر العباسي، وعلى سبيل المثال فلمروان ابن أبي حفصة الكثير من المدائح التي التزم فيها بوصف الأطلال وصفاً بدوياً (عطوان، ١٩٧٤م: ٤٠٦) إضافة إلى عدد من الشعراء الآخرين الذين ما برحوا يصرون على القصيدة العربية، فوقع نزاع بينهم ومن يخالفهم أو بعبارة أخرى النزاع بين أصحاب الجديد والقديم. ومن الشعراء الذين أسهموا سهماً كبيراً في الثورة الشعرية في العصر

العباسي الأول، فهو أبونواس إذ دعا دعوة حادة إلى نبد الحياة البدوية وما فيها من العادات والتقاليد ثم التعبير عن الحياة الحضرية ومظاهرها.

ومهما يكن من شئ فما نسّميه من هذه المفاهيم بعناصر الحياة الجاهلية أو الحياة البدوية أو عناصر الشعرية القديمة، لانقصد إلا مفهوماً واحداً، ومن تلك العناصر ما تلى:

الأطلال والربوع: وما يتعلق بها من هبوب رياح الجنوب عليها:

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وَتُبْلِ عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخَطُوبُ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣/ ٥٤-٥٥)

وطلب نزول المطر عليها:

سَقِيًّا لِعَيْرِ الْعَلِيَاءِ وَالسَّنْدِ وَغَيْرِ أَطْلَالِ مَيِّ بِالْجَرْدِ
وَيَا صَيْبَ السَّحَابِ إِنْ كُنْتُ قَدْ جُدْتُ اللَّوَى مَرَّةً فَلَا تُعِدْ
لَا تَسْقِيَا بِلَدَّةٍ إِذَا عُدَّتِ الْ بُلْدَانُ كَانَتْ زِيَادَةَ الْكَبِدِ

(المصدر نفسه: ١٠٩-١١١)

والبكاء عليها:

لَاتَبِكِ رَسْمًا بِجَانِبِ السَّنْدِ وَلَا تُجِدْ بِالْدُمُوعِ لِلْجَرْدِ

(المصدر نفسه: ٣/ ١١٥)

أو:

فَذَاكَ خَيْرٌ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى الْ رِبْعِ وَأَنْمَى فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ

(المصدر نفسه، ٣: ١٠٩-١١١)

والحمى: موضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرعى: وَلَا تُعْرَجْ عَلَى حِمَى عَرَجِ.

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣/ ١١٥)

والنؤى: مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يحفظها من السيل حيث قال في الشطر

الثاني:

وَالنُّؤَى كَالْحَوْضِ بِالْمَلَا الْجَلْدِ (المصدر نفسه: ٣/ ١١٥)

والخيام واتصالها بالأوتاد:

وعدّ عنها إلى دساكر لم تُرَبطُ بها خيمةٌ إلى وتَد

(المصدر نفسه: ٣ / ١١٥)

الإبل مع أنواعها:

وخلُّ لراكبِ الوجناء أرضاً تُخُبُّ بها النجيجةُ والنجيبُ

(المصدر نفسه: ٣ / ٥٤)

النباتات البدوية:

بلادٌ نبتها عُشرٌ وطلحٌ

(المصدر نفسه: ٣ / ٥٥)

وَنَحْنُ بَيْنَ بَسَاتِينٍ فَتَنْفُحْنَا رِيحُ الْبَنْفَسِجِ لَا نَشْرَ الْخُزَامَاءِ

(المصدر نفسه: ٣ / ٢١)

الصيد

وَأَكْثَرُ صَيْدِهَا ضَبْعٌ وَذَيْبٌ (المصدر نفسه: ٣ / ٥٥)

أسماء العرييات:

دَعِ الرِّبْعَ مَا لِلرِّبْعِ فَيْكَ نَصِيبٌ وَمَا إِنْ سَبَبْتَنِي زَيْتَبٌ وَكَعُوبٌ

(المصدر نفسه: ٣ / ٥٦)

أو:

لَا تَبِكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبِ إِلَى هِنْدٍ (المصدر نفسه: ٣ / ١١٢)

تشاؤماتهم الخرافية: وخصَّ الغرابُ غالباً بالتشاؤم.

إِنْ أَتَخَرَّزَ مِنَ الْغُرَابِ بِهَا يَكُنْ مَقْرَى مِنْهُ إِلَى الصُّرْدِ

(المصدر نفسه: ٣ / ١١٠)

وَالْعَنَ غُرَابَ الْبَيْنِ بَغْضًا لَهُ فَإِنَّهُ دَاعِيَةُ الشُّومِ

(المصدر نفسه: ٣ / ٢٨٥)

النظام القبلي:

ورحلتُ أسألُ عن خمارةِ البلدِ راحَ الشقيُّ على دارٍ يسأتلها

... أمك قل لي من بنو أسد؟ يبكي على طللِ الماضين من أسدٍ

وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ بَكَرٌ سُقُوا مُهْلًا ليس الأعرابُ عند الله من أحدٍ

(المصدر نفسه: ١١٥-١١٦)

يسمى أبو نواس الشاعرَ المقلدَ بالشقي، إذ إنه لا يستطيع في شعره أن يعيش واقع الحضارة الحديثة بل لا يزال يقلد القدماء دون أن يصبّ في شعره أحاسيسه الصادقة التي تنبعث من واقع الحياة، ولا يزال يتحدث عن القبائل العربية المنسوخة في النظام الحضري والمدني، ولقد بلغت النزعة التجديدية من خلال هذه الأبيات مبلغاً جعلت أبا نواس يعجز عن الاستماع إلى الشعراء الذين يصفون الأطلال والمنازل الخالية، ويدعو عليهم.

ويبدو أن الشاعر لا يقصد هجو القبائل العربية على وجه التحديد بل أراد أن يتقد النظام القبلي القائم في المجتمع العربي القديم قائلاً:

ما شئتُ من بلدٍ دانٍ منازلُهُ لكنّ فيه قبيلاتٍ وأفخاذاً

(المصدر نفسه: ١٣١ / ٣)

فنلّي أبا نواس كأنه وقع في دائرة التناقض؛ يرى بعينه المنتزهات المتنوعة والمتكثرة والمنفتحة التي تدلّ على حرية مجتمعه من جانب، ومن جانب آخر يصادف العرب ينظرون إلى أنسابهم القبلية بنظرة عصبية واحتقار للآخرين، فليس هذا برأيه إلاّ حاجزاً يحول دون تحقيق الإنسانية بأكملها.

وربما هو ردّ فعل لما على الموالى بأن يقوموا به في الحضارة الجديدة، وهو انتمائهم بقبيلة عربية، وقد يمكننا بأن نتلقى تردد أبي نواس بين مختلف الأنساب من اليمنية والنزارية وغيرها دليلاً على قولنا، وكأنه ينظر إلى هذا السلوك نظرة استهزاء، فليس لنا أن نوجه إليه سهام الاتهام بالنزعة الشعبوية التي نتحدث عنها بالتفصيل في مجال آخر.

مشروباتهم من اللبن والحليب:

دَرِ الألبانَ يَشْرِبُهَا رِجَالٌ رَقِيقُ العَيْشِ عندهم حَصِيبٌ
إذا رابَ الحليبُ فُبِلَ عَلَيْهِ ولا تُحْرَجُ فما في ذاك حُوبٌ

(المصدر نفسه: ٥٥ / ٣)

هذه كانت عدة من العناصر البدوية التي استخرجناها من شعر أبي نواس حيث جعلها أبو نواس مظاهر بل رموزاً للبدو، وهذا لا يعني أنها لا توجد في الحضارة الحديثة بل يعني أن الشاعر جعلها رمزاً للحياة البدوية لحضورها الفعّال في مضمار حياتهم، إذ منها ما زالت قائمة بين الحضريين مثل اللبن والحليب الذي لا يقتصر على من يعيش في البادية دون غيرهم أو بعض أسماء العرييات التي تستعمل حتى زمننا الراهن.

وإذا نظرنا نظرة عابرة بهذه الأبيات المختارة نجد أبا نواس يعلن تمرده على كل من يستخدم قوالب القدماء وطريقتهم من معاصريه، فيكثر من استخدام أساليب الإنشاء الطلبي مثل (دَع - خَل - لا تَبِك - سَقِيًا - عَد و...)، ومن المحتمل أيضاً أن يكون هذا الأسلوب الخطابي متأثراً بأسلوب القدماء الشعري في خطابهم لمن يصحبهم في رحلتهم الشعرية كما قال امرؤ القيس:

قفنا نبك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ولكن أبو نواس استخدم هذا الأسلوب في اتجاه معاكس، فأخذ منهم عليهم، وهو عدم الوقوف وعدم البكاء عليها.

أو يمكننا أن نؤوِّله على الأسلوب المونولوجي، لكنّه لا ينافي أن يكون مخاطب مثل هذه الأبيات الشعراء المتعصبين للمنهج الشعري القديم فهو من خلال التصريح لأبرز عناصر الحياة الجاهلية ثم رفضها واحدة بعد أخرى، كأنه بذل غاية جهده في أن يجهر بدعوته وتفصيلها وشرحها بصورة دقيقة حتى لا يبقى أى مجال لريب الشاكين، وسؤال السائلين، وردع الرافضين.

والدليل على قولنا هذا، ما قاله في الأبيات التالية وهو يحدّد مخاطبه الخاص تحديداً:

فَجَعَلَ صِفَاتِكَ لِابْنَةِ الْكَرَمِ	صِفَةُ الطُّلُولِ بِلَاغَةُ الْقِدَمِ
وَتَهِيمُ فِي طَلَلٍ وَفِي رَسْمِ	فَعَلَامٌ تَدْهَلُ عَنْ مُشْعَشَعَةٍ
أَفْذُو الْعِيَانِ كَأَنَّتَ فِي الْعِلْمِ؟	تَصِفُ الطُّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا
لَمْ تَحُلْ مِنْ غَلَطٍ وَمِنْ وَهْمِ	وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُتَّبِعًا

فإن الوهم واللبس والخطأ هي كلها حصيلة عمل من يتبع القدماء تقليد الأعمى، إذ يكتب عمّا سمعه من القدماء، ولا يكتب عمّا شهدته بنفسه.

ب: العناصر المستحدثة في فاتحة القصائد النواسية

يتمرد أبو نواس على العناصر الشعرية القديمة، فعلى مذهبه الشعري الجديد تستبدل تلك العناصر بعدد من عناصر الحضارة الحديثة، ومن أهم هذه المستبدلات هي الخمر، وما يتعلق بها حيث يقول:

لَا تَبِكِ رِبْعًا عَفَا بِذِي سَلَمٍ وَبَزَّ آثَارُهُ يَدُ الْقَدَمِ
وَعُجِبْنَا نَجْتَلِي مُحْدَرَةً نَسِيمُهَا رِيحُ عَنَبٍ ضَرَمِ

(المصدر نفسه: ٣ / ٢٨٥)

يدعو أبو نواس الشاعر الباكي على الأطلال إلى أن يماشيه في اتجاه الخمر التي تعبق منها رائحة طيبة كرائحة العنبر، ويتغنى بالورود والزهور الحضرية أمثال النرجس والآسولا "عرفج" و"شيخ" و"قيصوم" وأمثالها التي تنبت في البوادي والصحارى. ويظهر حقه على الأعراف الجاهلية الخرافية مثل التشاؤم بالغراب فيتولى وجهه جانب الخمر وتقاليدها، وعلى دأبه في معظم القصائد يدعو صاحبه باتباعه في هذا الطريق معرضاً عن البيداء والصحراء ومتعلقاتها إلى المدينة والحضارة وما تشتمله:

إِنْجَلِ عَلَى الدَّارِ بِتَكْلِيمِ فَمَا لَدَيْهَا رَجْعُ تَسْلِيمِ
وَالْعَنُ غُرَابَ البَيْنِ بَعْضًا لَهُ فَإِنَّهُ دَاعِيَةُ الشُّومِ
وَعُجِبْ إِلَى النَّرْجِسِ عَن عَرَفِجِ وَالْأَسِ عَن شَيْخٍ وَقَيْصُومِ
وَاعْدُ إِلَى الخَمْرِ بِأَيِّهَا لَا تَمْتَنِعْ عَنْهَا لِتَحْرِيمِ
فَمَنْ عَدَا الخَمَرَ إِلَى غَيْرِهَا عَاشَ طَلِيحًا عَيْنَ مَحْرُومِ

(المصدر نفسه: ٣ / ٢٨٥)

أو نلفى أبا نواس يوازن بين العيش في البادية وملحقاتها، وبين إيوان كسرى الذي يعدّه من مظاهر الحضارة الحديثة:

ذَاكَ العَيْشُ لَا خِيَمَ البُؤَادَى وَذَاكَ العَيْشُ لَا اللَّبَنُ الحَلِيبُ

فَأَيْنَ الْبَدْوِ مِنْ إِيوَانَ كِسْرَى وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الزُّرُوبُ

(المصدر نفسه: ٣ / ٥٦)

ويفضّل الثانية تمجيداً لشأنه باستخدام مكرّر لاسم إشارة البعيد (ذاك) وكذا ما وجده من البون الشاسع بين الأولى والثانية من خلال تعبيره بـ"أين البدو من إيوان كسرى" و"أين من الميادين الزروب" فهذا يماثل "أين الثرى من الثريا".

وفي ردّ على من قال بأن هذا البيت يظهر شعوبية أبي نواس (الحاوي، ١٩٨٧م: ١/٥٤)، فليس هذا إلاّ تجسيداً وتمثيلاً للحضارة الحديثة التي تبدو في معظم جوانبها استنساخاً من الحضارة الساسانية لاسيما في بناء بغداد على شاکلة المدائن، وكذا قصور الخلفاء على منوال قصور الأكاسرة.

وما يدفع أبانواس إلى المقارنة بين البداوة والحضارة هو ليس النزعة الشعوبية، وإنما هو النزعة الحضارية وهذه الأبيات شاهد لما ندعيه:

بِحَيْثُ لَا تَجَلِبُ الْفِجَاجُ إِلَى أَذْنِيكَ إِلَّا تَصَائِحَ النَّقْدِ
أَحْسَنُ عِنْدِي مِنْ إِنْكَبَابِكَ بِالْفَهْرِ مُلْحَا بِهِ عَلَى وَتَدِ
وُقُوفِ رِيحَانَةٍ عَلَى أُذُنٍ وَسَيْرِ كَأْسٍ إِلَى فَمِ بِيَدِ
يَسْقِيكَهَا مِنْ بَنَى الْعِبَادِ رَشَاءً مُنْتَسِبٍ عَيْدُهُ إِلَى الْأَحَدِ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣ / ١١٠)

فيقوم الشاعر بالموازنة بين عدد من عناصر البداوة والحضارة منها: زهور صحراوية تستحيل أن يعلّقها شخصٌ على أذنيه لتشقّقها، بينما هو من عادة الحضريين في مجالس الخمر تعليق الريحانة على آذانهم، والأهمّ في هذه الأبيات هو تأكيد الشاعر على يوم الأحد الذي يعتبر من أعياد المسيحية أو بعبارة أخرى قارن أبونواس بين البداوة وبين الحضارة المزيجة بالحضارات الأخرى، وقصده هنا ليس إلاّ الحضارة المسيحية، فليس لنا أن نحسب مثل هذه المقارنات والموازنات النواسية من قبيل النزعات الشعوبية.

وقد نلفى أبا نواس لا يلتزم في مقدمات بعض مدائحه بقضايا التجديد الشعرية، بل كان يتردد فيها بين المذهب القديم والجديد، فهو أحياناً يمدح هارون الرشيد على الطريقة القديمة فيذكر الأطلال، ويصف راحلته التي أوصلته إلى الممدوح، وما إلى ذلك

من قصائد يحافظ فيها على التقاليد القديمة كما في مديحته لهارون الرشيد مطلعها:

حَيِّ الدِيَارَ إِذِ الزَّمَانُ زَمَانٌ وَإِذِ الشِّبَاكُ لَنَا حَوَى وَمَعَانُ

(المصدر نفسه: ١١٣/١-١١٥)

أو في قصيدة يمدح فيها الخليفة الأمين:

بَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْآيَّامُ ضَامَتِكَ وَالْآيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ

عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ

(الحاوي، ١٩٨٧م: ٣٦٨/٢)

و إذا ما سئل سائل هل ما كان أبو نواس يعتقد بما صرّحه وصاحه من التجديد في الشعر العربي أو كان قد حالت دون تحقيق أمنيته حواجزاً ما؟ فقد تكون إجابته فيما يلي.

الدواعي النواسية في الثورة التجديدية

اتخذ الدارسون في العصر الحديث مواقف تقيضة من ثورة أبي نواس الشعرية فمنهم من يعتقد أن مذهبه الجديد ليس مذهباً شعرياً وفتياً فحسب، بل هو مذهب شعوبى أيضاً، إذ كانت غايته إعلاء الفرس، ورفعهم، والخط من شأن العرب، وتحقيرهم ومنهم من دافع عن أبي نواس وعدّ ثورته التجديدية ثورة حضارية بحجة.

وعلى رأس الفريق الثاني، الدكتور شوقي ضيف الذي يخفف عنه تهمة الشعبوية قائلاً: «وأبونواس لا يشغب على العرب شغب الشعبوية كشعبوية بشار، فشعبيته من لون آخر، ذلك أنه لا يوازن بين الخشونة وحضارة الفرس كما يصنع بشار، وإنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية، وما يجري فيها من خمر ومجون كان يعكف عليها عكوفاً، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر.» (ضيف، ١٩٨٠م: ٢٣١/٣) على شاكلة قوله:

كَم بَيْن نَاعَتِ خَمْرٍ فِي دَسَاكِرِهِ وَبَيْن بَاكِ عِل نَوْءٍ وَمَنْتَضِدِ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ١١٦/٣)

ومن الباحثين الذين دافعوا عن أبي نواس ونزعته التجديدية هو الدكتور حسين

عطوان حيث يعلّق على هذه الظاهرة بقوله: «إنّ دعوته إلى الجديد كانت ثورة حضارية خالصة لا تشوبها شائبة من شعوبية وغير شعوبية، وإمّا هي دعوة لمعاصريه من الشعراء كى يكونوا صادقين مع الناس صدقهم مع أنفسهم وحياتهم، فكيف يصفون مناظر الأطلال ومشاهد الصحراء، وهم يعيدون كل البعد عنها.» (عطوان، ١٩٧٤م: ١١٣)

وكذا لا غرو إذا ما ندعى أن أبانواس قد فطن بأن الالتزام بالمقدمات الطللية رمزٌ خفى للحضارة العربية وما يتبعها من العصبية العربية والتمييز بين الجنس العربى وسائر الأجناس غير العربية الدخيلة في نطاق الحكم الإسلامى، وقد وعى بأن الخلفاء لاسيما الرشيد العباسى يتمسكون بهذه المقدمة وهذا التقليد الشعرى باعتبارها سبباً من أسباب توطيد حكمهم العربى الذى وقع في وجه عاصفة حضارية أخذت تهبّ على العناصر العربية الخالصة والعصبية العربية، وكأنهم صاروا بمثابة "غريق يتشبث بكل حشيش" كى يسلموا ممّا حمل عليهم دوران الدهر.

يبدو تماماً بأنهم لم يكونوا راضين بنفوذ العناصر غير العربية في نطاق حكمهم، والدليل على ذلك ما فعلوه بالنسبة لأبى مسلم الخراسانى والبرامكة، لكنهم اضطروا بهذا التحول الجذرى لأجل اتّساع منطقة نفوذهم، تنوع الثقافات والحضارات التى كانت تتطلّب حكماً يتّسع لهذه كلها ويرضاها، فأضحوا مضطّرين باستسلامهم إزاء التغيرات والتحوّلات الطارئة في المجتمع.

فقد اصطبغ اتّباع منهج القدماء في الأدب بصبغة أرسطوقراطية من قبل الحكومة، إذ هى تحافظ على الرؤية الجنسية في الأدب، والتى تغلّل أجنحة خيال الأديب، وتقيدها، وتحول دون تحليقه في سماء الخيال بأحاسيسه ومشاعره الواقعية.

وأبونواس الشاعر العبرى الواعى لا يستثنى من هذه القاعدة الهامة، وهو يسعى بأن يحطّم هذه القيود والأغلال أينما كانت، لاسيما أنّه شيعى، وكثيراً من مواقفه السياسية والأدبية والاجتماعية ينشأ من نزعه إلى نزعه الشيعة، وهى مذهب رفض النظام الفاسد وهو طريقة من لا يخضع للنفاق والكذب، «ولا يمثل تشيعة دعوة إلى التعصب أو التمدّح، بل كان وسيلة لإذكاء شاعرية تحرّك كوامنها مواقف الرضا والثورة، ووسيلة للتلاحم مع قضايا التحرر الإنسانى والفكرى، وموقفاً يجسّد من خلاله مبادئ التمرد

والثورة التي تبنته الشيعة وعلى الدوام.» (الزعيم، ١٩٨١م: ٦٣) أو «نزعة أبنواس إلى التجديد كانت مجرد نزوة يراد بها التخلص من أثقال الأرسقراطية المتعرجة.» (زكي، ١٩٧١م: ١٦٩)

فليس لنا إلا أن نمعن في قراءة النص النواسي، وأن نجعل الظروف السياسية والاجتماعية القائمة على هذه الفترة نصب أعيننا، فنفتح عقولنا وقلوبنا على استقرائنا الحديث للقضايا والأبحاث التي قد تبدو بديهية للوهلة الأولى، فنخلع أزياء الأفكار السطحية والأحاديث المكررة من قامتها، ونلبس عليها أزياء حديثة، وإن قد لا تكون أنيقاً وشيقاً. فإن الظروف القائمة في المجتمع قد حدت بأبي نواس إلى أن يتفاعل معها، فتارة يتخذ المجون ستاراً على معتقداته الدينية الشيعية وقناعاته الإنسانية الحرّة، وتارة أخرى يثور ويهجم على أصول القصيدة العربية، فهو يغتنم الفرص لإبراز وجوده الفردي والاجتماعي، وإخراج مواهبه وأفكاره في مجال تحقيق الحرية والديموقراطية في مجتمعه آنذاك.

ومن هذا المنطلق، نجد أبنواس يبدأ مدحه في الرشيد العباسي بمقدمة تقليدية قصيرة يذكر فيها الأطلال، وكأنه إغواء منه للرشيد العباسي، بينما هو يضمّر رغبته في التمرد على المنهج القديم، واستبداله بمذهبه الجديد، فقد يبدو أنه كان متردداً حذراً في مدح الرشيد على المذهب الجديد. هذا، إلى ما روى عن عيسى بن عبد العزيز بن سهل الحارثي أن «كان الرشيد لا يسمع من الشعر ما فيه رفث ولا هزل، وكان لا يذكر في تشييب مدحه قبلة ولا غمزة.» (الديوان، ٢٠٠٢م: ١/١٢٧)، لكن أبنواس لم يطق صبراً من أن يغمض عينيه على ما يتمناه، فاتخذ تلك الطريقة في هذه القصيدة وهي:

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ بُكَائِي	وَقَدْ طَالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي
كَأَنِّي مُرِيغٌ فِي الدِّيَارِ طَرِيدَةٌ	أَرَاهَا أَمَامِي مَرَّةً وَوَرَائِي
فَلَمَّا بَدَأَ لِي اليَأْسُ عَدَيْتُ نَاقَتِي	عَنِ الدَّارِ وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ عَزَائِي
إِلَى بَيْتِ حَانَ لَا تَهْرُ كِلَابُهُ	عَلَيَّ وَلَا يُنْكِرَنَّ طُولَ ثَوَائِي

(المصدر نفسه: ١/١٢٦)

وبعد أبيات قليلة من هذه المقدمة التي يجري فيها أبنواس على مذهب الأقدمين، فلما بلغ وصفه للخمر يفاجئ الرشيد بهذه الأبيات:

فَإِنْ تَكُنْ الصَّهْبَاءُ أودت بتالدي
وَكَأْسٌ كَمِصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا
أَنْتِ دُونَهَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانَتْهَا
تَرَى ضَوْءَهَا مِنْ ظَاهِرِ الْكَأْسِ سَاطِعًا
فَلَمْ تَوْقِنِي أَكْرَوْمَتِي وَحَيَائِي
عَلَى قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدِ بِلِقَاءِ
تَسَاقُطُ نُورٍ مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ
عَلَيْكَ وَإِنْ غَطَّيْتُهَا بِغِطَاءِ

(المصدر نفسه: ١/ ١٢٧)

ويبدو أن هذا المذهب الجديد في شعر المديح قد صدم الشعور الديني عند هارون، إذ يذكر لنا الرواة أن وجهه قد تغير عند سماع تلك الأبيات في وصف الخمر وذكر الحان، وأراد أن يأمر بأبي نواس لو ما انتقل إلى مديحه الذي سرّ الخليفة:

تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الْأُمُورَ بِعِلْمِهِ
وَفَضَّلَ هَارُونَ أَعْلَى الْخُلَفَاءِ

(المصدر نفسه: ١/ ١٢٧)

ويظهر أن هذه المديحة، كانت أول قصيدة من قصائده على المذهب الجديد، فأعلنها في حضرة الرشيد، ومدح بها الخليفة الرشيد العباسي، ولكن أرسنقراطية الحكم تحكم عليه ماذا يفعل، وماذا لا يفعل، وإلا فيصاب بما لا يرضيه:

أَعَاذَلْ لَا أَمُوتُ بِكَفِّ سَاقِ
وَلَا أَبِي عَلَى مَلِكِ الْعِرَاقِ
هَجَرْتُ لَهُ الَّتِي عَنْهَا نَهَانِي
وَكَانَتْ لِي كَمُمْسِكَةِ الرِّمَاقِ
فَأَصْبَحْتُ اعْتَجَرْتُ عَلَى مَشِيبِ
وَوَقَّرَنِي الْخَلِيفَةُ عَنِ نِزَاقِي

(المصدر نفسه: ٣/ ٢١٦-٢١٨)

ولا يستبعد إذا ما يحتمل على "أعاذل لا أموت بكف ساق" الموت الذي من المحتمل، أن يحدث جرأ وصفه للخمر، وهو يتعاطبها في كبر سنه، ويبدو أن أبانواس من الواجب عليه أن يتبع ما يأمره الخليفة به، ويجتنب ما ينهاه عنه في سلوكه وتصرفاته رغم رغبته في ذلك.

ومع ذلك كله، فلم يأل أبونواس جهده في تحطيم سطوة الخليفة، وبذل قصوى جهده في انتهاك أرسنقراطية الحكم بوعيه ودهائه، وإن تعرّض إلى تهديدات بالحبس أو القتل كما عرفناه من خلال هذه القصيدة وما ورد في المصادر التاريخية من أنه قد حُبس دفعات عديدة لأجل شعره الذي لم يرض الخليفة لا سيما الرشيد.

ومن أسباب وجود المقدمات التقليدية في بعض مدائح أبي نواس مع أنه يدعو إلى التجديد، هو أنّ النصّ النواسي هو مرآة لواقع مجتمعه في مختلف أبعاده، فإذا نفاجئ بالمقدمة الطللية في مدائحه، فهذا يدلنا إلى سيادة الأرستقراطية في المجتمع العباسي بمثابة ظاهرة هامة فيه لاسيما في فترة حكم الرشيد العباسي، بالقياس إلى فترة الأمين إذ تكاثر عدد هذه المقدمات الطللية في مدح الرشيد كما تكاثرت المقدمات التجديدية في فترة الأمين العباسي.

ومع تقلص ظلّ الأرستقراطية في فترة الأمين العباسي، وجد أبو نواس الفرصة سانحة للخروج على المذهب القديم في المدح، وكان أول قصائده في مدح الأمين، يوم تهنئته بالخلافة على المذهب الجديد، فقدّم لها تمهيداً واعياً يبين فيه فساد المذهب القديم في المدح بالصراحة، وينقله لنا حمزه الإصفيهاني في شرح ديوان أبي نواس قائلاً: «الأمين العباسي جلس يوماً لعامة فدخل عليه القواد والأولياء على منازلهم ومراتبهم، فلما استقرّ به المجلس والمقام قام الخطباء فخطبوا، والأشراف فنشروا، والشعراء فمدحوا ووصفوا حتى قام آخرهم، أبو نواس، قال امير المؤمنين إن الشعراء والملوك قبلي شبّوا بالمدرّ والحجر والشاء والبقر والصوف والوبر فغلظت طباعهم واستغلقت معانيهم ولا بصّر لهم بامتداح خلفائنا، إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الإنشاد فقال: قد أذنّا لك. فأنشده ما مطلعته:

ألا دارها بالماء حتى تليئها فلن تُكرّم الصهباء حتى تهيئها»

(الديوان، ٢٠٠٢م: ١/ ١٣٦)

وحين استشعر أبو نواس برضى الخليفة في مذهبه الجديد، فتقدّم خطوات واسعة في قصيدة تالية، فمزج وصف الخمر بالغزل المذكور فقال:

يَسْقِيكَهَا ذُو قُرْطُقٍ يُلْهِى وَيُعْجِلُ مِنْ حَبَسِ
خَنِثُ الْجُفُونِ كَأَنَّهُ ظَبْيُ الرِّبَاضِ إِذَا نَعَسِ
أَضْحَى الإِمَامُ مُحَمَّدٌ لِلدِّينِ نَوْرًا يُقْتَبَسُ

(المصدر نفسه: ١/ ١٣٩)

وإن تتدقّق في هذه الرواية فنستكشف نقطتين هامتين منها، أولهما: إن المقدمة

التقليدية قد غدت بعداً من أبعاد الحكم الأرسطراطي في المجتمع العباسي حيث قام بها الطبقات العليا والوسطى من المجتمع من الأشراف والخطباء والشعراء، فقد وصف أبونواس القائلين بها بالملوك إذ أنهم يحافظون على هذا البعد الأرسطراطي كما يفعل الملوك ومن يحكمون على الناس.

ثانيهما: إن أبانواس يدين هؤلاء الشعراء بأنهم "لا بصر لهم بامتداح خلفائنا". فربما هو أراد من هذه العبارة بأنهم لا يعرفون الخليفة ورغباته، ولا يماشون مقتضيات تلك الفترة التي يعيشون فيها هم والخليفة، إذ لا يميزون بين تلك الفترة المتصّفة بالمدّر والحجر والشاء والوبر، وبين هذه الفترة المتصّفة بألوان جديدة من الحضارة والثقافة التي تتطلّب الحداثة في شعرهم. ثمّ "بخلفائنا" قد يكون تأكيداً منه على ضرورة الجِدّة والطراوة في الشعر حسب مقتضيات اليوم.

ومن الأجدى في هذا المجال أن نضيف إلى كل ما قلناه عن مذهبين القديم والجديد موقف العلماء والرواة والمتصّين بالقديم في تلك الفترة، والذي اتّسم بالتعصب والجمود، ولا يعترف بتطور المجتمع وتحوّله، وقد هاجم ابن قتيبة أمثال هؤلاء العلماء والرواة فيما رأى من بعضهم يستجيدون الشعر السخيف لتقدّم قائله ويرذلون الشعر الرصين لكونه محدثاً. (ابن قتيبة، ١٩٣٢م: ٦)

ف نجد العلماء والرواة لا يعدّون الشعر شعراً إلاّ إذا كان جارياً على النظام القديم أي في إطار عمود الشعر ونهج القصيدة العربية، ولكن المحدثون خرجوا عليها، ولو أنّنا قارننا بين النهج القديم والنهج الحديث يتبين لنا أهمية ما دعاه الشعراء المحدثون بالثورة على الأطلال وقيمته، بالرغم من المعارضات القوية التي لقيتها دعوتهم من العلماء والرواة المتمسكين بالمنهج القديم الذين لم ينحدوا عن موقفهم، وما خضعت أفكارهم لما حدث في المجتمع من التغيرات والتحوّلات.

ويظهر تمام الظهور أن أبانواس لم يفتتح قصائده بقدمات تقليدية طواعية بل هو وجد نفسه في معظم الأحيان لا بد أن يكون سامعاً ومطيعاً وخاضعاً لقرود زمنه:

هذا زمان القرود فاخضع
وكن لها سامعاً مطيعاً

النتيجة

- إن النزعة الشعبية النواسية التي بُنيت على مواقف الرفض والثورة، قد تركت تأثيراً ملحوظاً في موقفه التجديدية للأدب، وحدث به إلى تلاحم مع قضايا التحرر الإنساني والفكري، لاسيما أنه عاش في فترة حكم فيها الخلفاء العباسيين المحافظين على العلويين، وصار اتباع منهج القدماء في الأدب يصطبغ بصبغة أرسطوقراطية من قبل الحكومة.

- يمثل أبونواس في شعره النزاع القائم بين العلماء المتعصبين وبين المجددين خير تمثيل، ولا يتخلّى عن هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة التي احتلت مساحة كبيرة من القضايا الاجتماعية آنذاك. وتلك التناقضات والتعارضات التي نشهدها بين أبي نواس باعتباره من المجددين وبين العلماء المتعصبين المتبعين للنهج القديم هو قوام الطاقة المحركة للأدب تجاه إزدهاره وتطوره في العصور التالية، وقد تكون بمثابة مقدمة لظهور شعر الحر وتأسيس مدارس أدبية أخرى.

- إن موقف الرشيد الأرسطوقراطي من الشعر والشعراء عموماً وفي النص النواسي على الخصوص، تأكده على احتفاظ الشعراء بالمنهج القديم، وضغطه عليهم للالتزام بهذه السنة الشعرية يعدّ من إحدى أسباب ظهور النزعة التجديدية الشعرية. وكان هذا الإلحاح من الخليفة العباسية قد ظهرت آثاره في أوائل المحاولات التجديدية لأبي نواس وفي زمن الرشيد العباسي نفسه، وقد أعطى ثماره في زمن الأمين، إذ نواجه فيه كثرة المقدمات الغزلية الجديدة في فواتح المدائح النواسية.

- ومن أهمّ المؤثرات السوسيولوجية في وقوع النزعة التجديدية النواسية هي كما

يلي:

الف- تضاد القيم والمعايير الاجتماعية القديمة والحديثة وعدم تطابق الإيديولوجية القديمة والظروف الراهنة وعدم توافقهما -الذي يحول دون تقدّم الإنسان- عند المثقفين في المجتمع، فإن ظهور الشعراء المولدين الذين أضحووا يشكلون نسبة عالية من الشعراء، صارت بمثابة قوة دافعة شديدة لحركة التجديد في الشعر في أواخر العصر الأموي،

وتواصلت بقوة أكثر في العصر العباسي الأول لشدة الدوافع والمؤثرات الاجتماعية في هذه الفترة -من نفوذ البرامكة الفرس في نظام الحكم العباسي وتصرفهم في الشؤون المالية والاقتصادية للحكومة وما إلى ذلك- لفقدان أي علاقة عاطفية بينهم ومجتمعهم الحضري الراقى الذي يعيشون فيه وبين معالم الحياة الجاهلية من أطلال خربة ودمن بالية، خلافاً لشعراء العرب الذين يخضعون لعاطفتهم القوية التي تربطهم بموطنهم الأول، فكانوا يبكون الأطلال باعتبارها مظهرًا بارزاً من مظاهر وطنهم القديم.

ب- حدوث تغييرات سريعة في المجتمع حيث أدى إلى عدم الانسجام بين النظام الاجتماعي الحضري والحكومة العباسية التي لا تزال تلح على المقدمات التقليدية في الشعر.

ج- التضاد إثر نشوء الطبقات الاجتماعية الجديدة وتغيرات سريعة جاءت تلو امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأخرى وهذا كان يتطلب ايدئولوجيات تختلف عما كان في السابق .

د- دخول القيم والحوائج الجديدة في المجتمع العباسي، دون أن تملك الطبقة المثقفة لاسيما معظم الشعراء المؤلدين آلية يستمدون بها في تحقيق تلك الغايات، فإنّ الحداثة في الحياة تدعو حداثة في الآليات والأدب أيضاً، إذن هم يشعرون بالاستياء ويقومون بما يغيّر النظام التقليدي ويشورون عليه.

المصادر والمراجع

- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم. (١٩٣٢م). الشعر والشعراء. مصر: المعاهد.
 ابن المعتز، عبدالله بن محمد. (١٩٥٦م). طبقات الشعراء. مصر: دار المعارف.
 أبوشقراء، محيي الدين يوسف. (٢٠٠٥م). مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي. ط ١. بيروت: المركز الثقافي العربي.
 اسكاربيت، روبر. (لاتا). سوسيولوجيا الأدب. ترجمة: عرموني، عطوان. بيروت: منشورات عويدات.
 أبونواس، الحسن بن هاني. (٢٠٠٢م). الديوان. شرح حمزه اصفهاني. تحقيق: غريغور شولر. ط ١. بيروت: دار المدى.

المحاوى، ايليا. (١٩٨٧م). شرح ديوان أبي نواس. بيروت: منشورات الشركة العالمية للكتاب. بركات، وائل وآخرون. (٢٠٠٤م). اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة. دمشق: منشورات جامعة دمشق.

بروكلمن، كارل. (١٩٦١م). تاريخ الأدب العربي. ترجمة: عبد الحليم النجار. القاهرة: دار المعارف.

حسن، عزة. (١٩٦٨م). شعر الوقوف على الأطلال، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث دراسة تحليلية. دمشق: طبعة الترقى.

حسين، طه. (١٩٣٧م). حديث الأربعاء. مصر: البابي.

حجازي، سمير سعيد. (٢٠٠٧م). مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق. ط ١. القاهرة: دار الآفاق العربية.

خريس، حسين. (١٩٩٤م). حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبونواس ومعاصريه. ط ١. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

الزبيدي، علي. (١٩٦٦م). «التجديد بين الشعر العباسي والشعر المعاصر». الآداب. السنة الرابعة عشرة. العدد الثالث. صص: ٤٧-٤٠.

الزعيم، أحلام. (١٩٨١م). أبونواس بين العبث والاعتراب والتمرد. ط ١. بيروت: دار العودة. زكي، كمال. (١٩٧١م). الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري. القاهرة: دار المعارف.

ضيف، شوقي. (١٩٨٠م). تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول). ط ٦. مصر: دار المعارف.

عطوان، حسين. (١٩٧٤م). مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول. مصر: دار المعارف. عزيز الماضي، شكري. (١٩٨٦م). في نظرية الأدب. ط ١. بيروت: دار الحداثة.

هدارة، محمد مصطفى. (١٩٦٣م). اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. القاهرة: دار المعارف.

جمعة، حسين. (١٩٩٨م). «شعرنا القديم صورة ودلالة». مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية. المجلد ١٤. العدد الأول. صص: ٧٠-٩.

السامراي، يونس أحمد. (١٤٢٦ق). «ثقافة الشاعر العباسي الشعرية». المورد. المجلد الثاني والثالث. العدد ١. صص: ١٧-٤.

هادي يور نهزمي، يوسف. (١٣٩٠ش). «أبونواس بين مطرقة الحكام وسندان التاريخ». مجلة أدب عربي. جامعة طهران. الرقم الثالث. صص: ٦٧-٤٧.

الشتيوي، صالح علي سليم. (٢٠٠٤م). «ظواهر من التمرد في شعر العصر العباسي الأول».

مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية. المجلد ٢٠. العدد (٢+١). صص:
١٩٩-٨٥.



پروپوزيشن گاه علوم انسانی و مطالعات فرہنگی
پرتال جامع علوم انسانی